# الفصل الثامن والعشرون
## الغزال الصغير

ترك أحد الصقور مكانه بين مجموعة الصيادين المتقدمة وطار إلى الخلف. ناداه الصيادون مهددين ولكن عبثاً. وانطلق كالسهم قرب رقبة فرسي مما جعلني عفوياً أميل عن السرج لتجنب الاصطدام به. استدار في لحظة وحطّ بالقرب مني فشددت العنان وأخذت أراقب. وبذيله المنشور على الأرض كان الصقر يصارع أفعى بمخالبه ويضرب بمنقاره رأسها المراوغ. التفت الأفعى حول الطائر بتشنج ولكنها لم تستطع أن ترتفع فوق ريشه. وفي النهاية أمسك الصقر برأس الأفعى وخلعه ببضع حركات دائرية. توقف عدد من الصيادين أيضاً لمراقبة قاتل الأفعى أثناء العمل، وعندما انتهى الصراع وابتدأ الطائر بأكل فريسته صاح به أحدهم بلهجة الآمر: «يا سهيل!» أطاع الطائر النداء وترك ضحيته وطار إلى قبضة الصياد الممدودة. وعندما بدا على وشك الاستقرار عليها انحرف فجأة واندفع نحو الأعلى، وابتعد كحجر قذف بمقلاع. حام الطائر للحظة في الجو ثم اختفى عن الأنظار إلى الأبد.

وصاح أحدهم ضاحكاً: «الشيطان!».



obeikandl.com

وعلّق فواز: «إنه شيطان حقاً! قليل من الصقور يمتلك مثل هذا البصر، والأقل هو الذي يمتلك مثل هذه الروح. من حسن الحظ أنه يفتش عن وليف. ونرجو الله أن نجد صغاره في يوم من الأيام!» أغوى نداء القفر سهيلاً واستجاب لهذا الدافع في دمه.

وحثَّ البدو أفراسهم إلى الأمام بصيحات عالية وتسابقوا مرة أخرى. وعلى الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً في هذا اليوم فقد انتهى القنص لأن حرارة الشمس ضارة بالكلاب والصقور.

أصدر الأمير فواز أوامره بالتجمع، وتقدمنا جميعاً إلى مكان المخيم المتفق عليه سابقاً حيث وصلت الجمال المحملة بقرب الماء بعد فترة. كنا على بعد سبعة أميال تقريباً عن مخيم الرولة بخط مستقيم ولكننا قطعنا ثلاثة أضعاف تلك المسافة بمسيرتنا المتعرجة.

وبعد جمع الحطب حضّرت القهوة وشويت الأرانب والحباري. وتجمع الفرسان من كل الاتجاهات على جياد لاهثة، وتجمع الرجال في حلقات حول النيران الصغيرة. وتقاطع المثيرون الذين يركبون الجمال جالبين معهم صيداً وفيراً من الطيهوج والحباري والأرانب والثعالب والغرير والغزلان. وتكدست كل الجثث على الأرض قرب الأمير فواز والشيوخ الآخرين.

وسيقت الخيول الثلاثون بعد أن استراحت لفترة ولكن الكلاب المتعبة اللاهثة رُشَّ الماء في أفواهها على الفور. ووضع البزاة صقورهم في أواني الطبخ المملوءة جزئياً بالماء، حيث فرشت الطيور المغبرة ريشها ثم سوّته بمناقيرها. واستراح الفرسان وهم يرشفون القهوة ويتحادثون.

وقف بجانبي صقر أحمر مكتمل النمو أسير على مجثم أفقي. كان يرفرف بجناحيه محاولاً الهروب، ولكن الرباط الجلدي القوي أمسكه بثبات. كان هذا الصقر قد أسر قبل يومين فقط وكان حاجباه ما يزالان مخيطين معاً كعادة البدو

مع الصقور المأسورة حديثاً. وقد أحضر دوغان ـ العبد المسؤول عن الصقور ـ هذا الطائر البري ليعتاد على الركوب.

عند المساء أرسل فواز بعض الفرسان لمخيم القبيلة (لأن الرولة كانوا في مرحلة الهجرة) ليتأكد من مكان نصب خيمته، وبعد العشاء وفي ضوء القمر بدأ الجميع مسيرتهم تجاهها.

هذه المسيرة الهادئة في ضوء القمر أضيفت إلى خبراتي الرائعة. سرنا جميعاً على مهل منتشرين في مجموعات صغيرة أو كبيرة، بينما مناحي رئيس حرس الأمير الخاص يضبط الإيقاع بالأغاني البدوية التي بدت في البعد على صيغة «يو ـ هو ـ لو ـ وو».

وعندما كنا نصعد إحدى التلال تخيلت أن الأرض انتهت خلفها. توقعت دائماً أن أجد هوةً مظلمة وبحراً مضيئاً ونوراً متغيراً ونجوماً تبرز من الأعماق.

وبالفعل ظهرت الأنوار عندما وصلنا قمة أحد المرتفعات، ولكنها أنوار المخيم الحمراء التي غطت السهل بأكمله. إنه معسكر الرولة يمتد أمامنا في ضوء القمر الواهن: صورة سحرية قصة من قصص الجنّيات في الصحراء. وتناهت إلى مسامعنا الهمهمات البعيدة التي أضافت لمسة حقيقة إلى عالم الخيال.

وصل الجميع ـ موجة من الفرسان يغنون ـ تلاشت في ظلال الخيام السود. ترجلنا وربطنا خيولنا إلى حبال الخيام ودخلنا الخيام لنجلس حول نيران بعر الجمال. بعد منتصف الليل انفضّ الجميع وعدنا إلى خيامنا. يعشق البدو الأسمار الليلية. وعندما لا يكونون على طريق الهجرة يرتاحون أثناء النهار استعداداً لهذه الجلسات الليلية الطويلة.

وتمددنا فوق فرشاتنا الجلدية لعدة ساعات قرب النار، لأن الليل بارد جداً. ولم نكد ننام حتى حان وقت الاستيقاظ ثانية، لكن الظلام ما زال سائداً. ونهضت الهياكل الملفوفة واقتربت من الجمر المتوهج تدفئ يديها وتتناول قطع الأغصان المضيئة لتشعل سجائرها.

وصدرت الصيحة «انهضوا يا أولاد!» سارع العبيد إلى الجمال ففكوا وثاق ركبتها الصوفي وركلوها أو ضربوها على الجوانب. ونهضت الذلل واحداً واحداً وأسرجت في الظلام. أما الجياد فقد تركت لتركب فقط أثناء المطاردة، ولذلك قدناها معنا مقطورة إلى الجمال كالعادة.

وانقلب الفجر إلى صباح ذهبي مشرق. وفوق السهل في البعد بدا كل شيء نقياً وشفافاً حتى في أقصى نطاق النظر. انتعشت أرواحنا وتنبّهت مداركنا. واستبدل الصيادون بالجمال ظهور الجياد عندما اقتربنا من **برك خبر مرفيا** التي اتجهت نحوها آثار كثير من الغزلان. وانتشر المثيرون، وسرعان ما أفزعوا قطيعاً من الغزلان ووجهوه نحونا.

وبدأ الصيد البري! كيف تطاولت خيولنا! كيف تطايرت الحوافر! وانتشر الصيد والصيادون فوق السهل، وأفزع المثيرون قطعاناً جديدة أمامهم!

واقتربت مجموعة من الصيادين ـ كنت واحداً منهم ـ من إحدى مجموعات الغزلان حتى أصبحت على مسافة الرمي، ولكن الغزلان السريعة استطاعت التملص منا. واستمرت المطاردة أكثر من ساعة ولهثت خيولنا وارتجفت من الإنهاك. واستطاعت بعض الغزلان من النفوذ عبر خط الصيادين المتناثر.

وكشف الأمير فواز ورجاله عن رؤوس صقورهم واندفعت الطيور المتحررة فتجاوزت الغزلان بسرعة مذهلة واختارت ضحاياها. في البداية طارت فوقها قرب سطح الأرض ثم اندفعت الطيور إلى الأمام وأمسكت بالغزلان بين قرونها أو من رقبتها. وباندفاعات يائسة وانطلاقات جانبية حاولت الغزلان المذعورة الإفلات من مهاجميها القتلة دون جدوى. وبعد أن أنشبت الصقور مخالبها في فروات رؤوس الغزلان أو في محاجر عيونها أخذت تضرب بقوة بأجنحتها ومناقيرها على أعين الغزلان لتوقف اندفاعها.

وشددتُ عنان فرسي مذعوراً. مرت بجانبي غزالة عمياء ولكنها لم تستطع الإفلات من مجموعة الكلاب التي تجاوزتها وأمسكت بعراقيبها، ولم تتركها حتى بعد أن انقلبت عدة مرات. ومن سحابة الغبار الثائر وصلني ثغاء وصياح وأنين الغزالة المصابة التي توقفت عندما أسرع الصيادون ووضعوا نهاية لآلامها.

حامت الصقور فوق رؤوس الرجال والحيوانات وكلها مجنونة بالانفعال ومتعطشة للقتل. وتمددت الغزلان الضعيفة على الرمل ترتجف في ساعاتها الأخيرة.

وقعت خمسة غزلان ضحايا للصقور والكلاب في الهجمة الأولى، كما وقع واحد وثلاثون غزالاً آخر ضحايا قبل أن يقرر الصيادون الاكتفاء والعودة إلى المضارب.

وكان أكثر قتال شرس شاهدته هو الذي قام به غزال صغير استطاع الإفلات من صقرين وإصابة أحد الكلاب بجراح بليغة ووصل مأمناً مؤقتاً. ما زلت أراه بوضوح ولكن على مسافة بعيدة وهو يقف متيقظاً منتظراً، انحرف خط المثيرين المحمولين ليحصره، وبدأ صيد الغزال المسكين من جديد. ودعوت من كل قلبي أن يفلت هذا المقدام نهائياً ولكنه بدا منهكاً. واقترب فرساننا أكثر فأكثر وعندما وصلوا إلىمسافة الرمي انطلقت ثلاثة صقور نحو الغزال فلحقت به خلال لحظات. وبدأنا نرقب من جديد الصراع اليائس.

واتفق الرولة على أن هذه المعركة ستخوضها الصقور لوحدها دون مساعدة الكلاب وجرى فرساننا يصيحون خلف الغزال الهارب. لم تكن المسافة أكثر من طول مائة حصان، ولذلك استطعنا أن نتابع بوضوح صراعه مع الصقور الثلاثة واقتربنا أكثر قبل أن ينحرف الغزال فجأة ويرمي نفسه على الأرض، وينقلب في الهواء ثم يعود ثانية منعطفاً إلى اليمين واليسار. لم يكن من السهل على الصقور التغلب على سيد فن الدفاع هذا. ربما لم يكن صراعه الأول مع صقور الصيد الرهيبة.

هذه الصقور أيضاً كانت فنانة بطريقتها الخاصة. وعلى الرغم من دهاء الغزال استطاع اثنان من الصقور الإمساك برأسه ورقبته. وسرعان ما علت فوق لهاث الخيول ووقع حوافرها صيحات استحسان الصيادين. لكن هذه الصيحات لم تكن لمدح الصقور بل الغزال الباسل الذي توقف فجأة وقفز في الهواء كالسهم، وبنفس الاندفاع الشديد رمى نفسه على الأرض وانقلب وبدفعة شديدة من رأسه غرس قرنيه الصغيرين اللذين يشبهان الخنجر في الأرض، وقام بعدة قلبات أخرى في الهواء فأعطب أحد الصقور وجرح الآخر حتى الموت وسحق الثالث الذي أمسك به للحظات قليلة. وبدا كما لو أن الغزال لن ينهض ثانية وأن كل عظامه الدقيقة قد تكسرت.

حدثت هذه المعركة كلها بسرعة البرق. ونهض الحيوان اليائس على قوائمه ثانية واندفع هارباً من جديد قبل أن يدرك المرء ماحدث.

وخوفاً من أن يضيع الغزال أطلقت الكلاب في إثره، ولكن بعد فوات الأوان جرت الكلاب لفترة من الوقت في إثر سحابة الغبار الصغيرة التي سبقتها ولكن بطل اليوم اختفى في البعد البراق.

وصاح الصيادون على كلابهم «يا إيشلي! يا إيشلي!» وهي صرخة البدوي التقليدية لجمع كلابه.

لم تكن مسيرة عودتنا مرحة كمسيرة خروجنا في الصباح. الكثير من جيادنا أخذ يعرج ولكنها مضطرة للحمل؛ ليس فرسانها فقط بل جزءاً كبيراً من غنائم الصيد وعدداً من الكلاب المصابة فوق كل ذلك.

وعندما لاحظت بعض روث الصقر على عباءة الأمير فواز حاولت إزالته، ولكن الأمير الشاب أوقفني باعتزاز وقال: «لا! لا! يا عزيز. إن روث الصقور النبيلة يدمغنا بخاتم الأصل العريق».

وفسّرت كلماته أكثر من أي مفهوم. لدي المعنى الخفي لرحلات الصيد هذه. إنها عريقة ومشرفة. وعراقة الصحراء ( سعة عينها كما يقول البدو) لا بد من اختبارها وتجربتها، ولكن كما أن البدو عريقون وواسعو الأعين، فكذلك

خيولهم وجمالهم وكلابهم وصقورهم. ولايقل عن ذلك طرائدهم من غزلان ووعول ونعامات.

ولكن العرب الرحل يكرهون الوضاعة في الإنسان والحيوان، لأنهم يرونها خارج نطاقهم وخارج نطاق الصحراء...

«... يموت لكي تتمتع بحياة جديدة
لأن ما يموت هو الضعيف
لكي يحيى القوي».

obeikandl.com